تقديم

الحمد لله الذي جعل في الحمد تعلّة عن شكر لن يبرح مراميَ الشوق أبدًا.

الحمد لله ... الذي فطر الإنسان على الحقّ، وهداه النجدين، وكرّمه بالاختيار، واستخلفه في الأرض، وقضى أنّه ليس له إلاّ ما سعى.

الحمد لله الذي بعث في الناس رسلاً مذكّرين ومعلّمين، والصلاة والسلام على خاتمهم وإمامهم، الذي آمن بما أُنزل إليه من ربّه، واتّبعه المؤمنون ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ٢٨٥ : البقرة.

*

«أحسن القَصص» حلقات تلفازيّة غنيّة عن التعريف، أعدّها وقدّمها من فضائيّة دُبَيّ فضيلة الشيخ الدكتور أحمد الكُبَيسيّ، واستقطبت شرائح من المتتبّعين متفاوتة من حيث المستوى الفكريّ، والالتزام الدينيّ، كما تابعها كثير من غير المسلمين في العالم. ورغم وفرة ما قيل وما كتب في القصص القرآنيّ، فقد كانت لتلك الحلقات بصمة متميّزة، تجلّت في بليغ أثرها في العقول وفي القلوب، وذلك لسَعة آفاق صاحبها، ولقدرته على تقديم فكرته في نسيج عفويّ محكم من العلم والثقافة، يمسح الزمان والمكان في كلّ الاتّجاهات، ولخبرته المشهودة في جذب فئات متباينة إلى خطاب واحد، تجد فيه كلّ فئة ضالّتها.

لقد اختار فضيلة الشيخ الكُبَيسيّ أن يكون العمل لقطات حيويّة من قصص الأنبياء، تسلّط الضوء على ما ينبغي أن يكون له المكان الأبرز في فكر مسلم اليوم، وتصحّح كثيرًا من الأوهام التي تُطيف بشخصيّات الأنبياء، وأحداث دعواتهم في ذاكرته، وذلك في إطار من قِصصهم كما جاءت في الذكر الحكيم. وكان فضيلته يقتصر على رؤوس أقلام مدوَّنة، ويرتجل المادّة ارتجالاً في بثّ مباشر، تتخلّله مهاتفات ومداخلات، وتعريجات على مناسبات وأحداث راهنة أو مسترجَعة.

ومن أبرز ما يميّز قصص الشيخ الكبيسيّ إضافة إلى ما تقدّم أنّها مزيج من رزانة

البحث العلميّ الجادّ القاصد، وعفويّة النجوى الخيّرة المثمرة، فهي غنيّة، إلى درجة الترَف، بالفوائد العلميّة والروحيّة السائغة، وباللفتات البعيدة المعجِبة، التي ترضي العالِم، والباحث، والرائد، والمبدع، وناشِد العظة والعِبرة، ومستجدي دموع الخشوع، والمتبرّك بكلّ ما يمتّ إلى كتاب الله بصِلة، والمتطلّع إلى قصّة تمتعه... وتلك ميزات نادرة، لعلّها ما نحتاج إليه اليوم، في الخطاب الإسلاميّ الذي يحمل فكرًا قيّمًا، لنضمن نشر هذا الفكر على أوسع نطاق.

❋

وقد حاولت أن أتلمّس المنهج الذي يأخذ به الشيخ نفسه في معالجته القصص، فوقفت على نقاط أبرزها:

- اعتماد النصّ القرآنيّ كأساس.
- اعتماد صحيح الحديث فيما ليس فيه نصّ من الكتاب.
- اعتماد ما لا يخالف المصدرين السابقين من الروايات التاريخيّة، وروايات أهل الكتاب.
- الاستعانة بكافة نصوص الحديث ما لم تعارض الصحيح، أو تخالف الواقع والعقل، وذلك في الأمور الجانبيّة كإيضاح فكرة، أو إحداث تأثير نفسيّ في المتلقّي، ممّا يقتضيه موقف أو تتطلّبه قضيّة. وقد كان هذا، بالدرجة الأولى، من مفرزات تقديم المادّة في قالب الخطاب العامّ، الذي يفرض اتّخاذ الوسائل الكفيلة بإيصال الفكرة إلى أكبر عدد من المتلقّين، وسوادُهم قد اعتادوا الاستعانة بالروايات التاريخيّة، وروايات أهل الكتاب.
- عدم التجرّؤ على النصّ الصريح بالتأويل، والأخذ به كما هو.
- التأويل في القصّة القرآنيّة لأنّها من المتشابه.
- التعويل بالدرجة الأولى على اللغة في فهم النصّ.
- التوفيق، لا التلفيق، بين العقل والنقل من صحيح المصادر.
- الاستعانة على نطاق واسع بمنجزات سائر العلوم والأبحاث التطبيقيّة والإنسانيّة.

❋

بدأت عملي في الكتاب بملاحظات صغيرة، ونقاط مضيئة كنت ألتقطها في أثناء عرض البرنامج، وذلك في سياق متابعتي ظاهرة النبوّة ضمن بحث «الحق المطلق» الذي أعكف عليه. ولمّا تمّت الحلقات عرضًا وجدت بين يديّ مادّة ثمينة، فيها كثير من الفضل على ما عرفتُ في بابها، ممّا أغراني بضمّها إلى المادّة الأمّ، وجعل ذلك في كتاب.

واحترت في الشكل الذي أقدّم فيه ما تجمّع لديّ، فلم يكن عملاً خالصًا لي، ولا عملاً خالصًا لفضيلة الشيخ، ثم رأيت أن أقدّمه في أكثر صوره إخلاصًا للواقع. وقد شجعني أن حصلت على مادّة الحلقات، وبدقّة ما زلت أعجب لها، على أقراص مرنة من الأخت الكريمة نعيمة يوسف إبراهيم أسطة فاستبشرت بأن يختصر هذا شوطًا كبيرًا من الطريق الطويلة.

خيّل إليّ في البداية أن الأمر يسير، وأنّه لن يستغرق أكثر من أشهر لينجز، ولكنّني وجدتني أمام مئات المراجعات في القرآن الكريم، وكتب السنّة، وفي كتب اللغة والمعاجم، وفي التفسير والتاريخ والفلسفة والاجتماع وعلم النفس والفيزياء والجغرافية، ووجدت أن عليّ قراءة أكبر عدد من الكتب التي عرضت للقصص القرآنيّ، أو بحثَت فيه، قديمها وحديثها. ولم أبخل في ذلك بالجهد ولا بالوقت، فحققّت النصوص من مصادرها الأمّ، واجتهدت في متابعة معظم الآراء، إن لم أقل كلّها، في القضايا التي كان لصاحب القصص، فيها رأي أو اجتهاد، أو ترجيح لقول على قول، أو لمذهب على مذهب.

وبرزت لي قضايا اقتضت التدخّل، وأخرى خرجتُ بها من ساعات الغوص الطويلة في أعماق الكتب، فتطاولتُ وأثبتّ ذلك على وجل حيثما وجدت له مكانًا مناسبًا. وكنت متفائلة جدًّا حين أمّلت أن أعرض ذلك أو بعضه على من يستطيعون تقييم عملي وتزويدي بالنصح، ولكنّهم كانوا بين من لا سبيل لمثلي إلى بلوغه، ومن ليس في وقته فضل لذلك.

*

اتّخذتُ الأقراص المرنة التي زوّدتني بها الأخت نعيمة مشكورة أصلاً لعملي، وكانت نَسخًا أمينًا أمانة مطلقة لكلّ كلمة في البرنامج. ومن هنا وجد تني أمام مادّة مضطربة السياق، تغصّ بالاستطرادات واللقطات الجانبيّة والفقرات المقحمة، التي أثقلت النصّ، في مقابل افتقارها إلى ميزة العرض المُشاهَد، حيث تكمّل الصورة المعنى المستفادَ من النصّ. وأدّى هذا، مقرونًا بحرصي على إثبات المادّة كاملة، إلى إخفاقي في اتّخاذ قالب موحَّد لعرض القصص، إذ وجدت أنّه سوف يضطرّني إلى مزيد من التدخّل في النصّ، والتخلّي عن جانب من المادّة، فضلاً عن أنّه سوف يخرج بالقصص عن السمت المميّز لها، ممّا يهدّد خصوصيّتها، وهي الجانب الأهمّ في اختياري إيّاها.

❋

وأمام واقع المادّة التي بين يديّ لم أجد بدًّا من التدخُّل في صلبها، وكنت قد حاولت في البداية أن أكتفي من ذلك بأدناه، وأن أفصل بين مداخلاتي وبين الأصل، وجرّبت لذلك أكثر من طريقة، كأن أحصرها في الحواشي، أو أحيطها بمعقوفات، ولكنّني لم أصل إلى ما يُرضيني، ورغم ما سبّبه ذلك لي من إحباط وحيرة، لم أفكّر في التخلّي عن العمل. وبعد تردّد طويل، قرّرت أن أكتب نموذجًا أدوف فيه إضافاتي في الأصل، أعرضه على صاحب القصص، فإذا فضيلته يوافق على متابعة العمل على هذا النسق. فكانت أمانة معَنّيةً إلى درجة الأسر.

وبدأتُ الكتابة... كانت هنالك قضايا لم يعرض لها الأصل، ونقاط لم يعرّج عليها، ورأيت أنّها قد تكون موضع تساؤلات من قبل القارئ، فأثبتّ منها ما اهتديت إليه[1]. وكانت هنالك نقاط لم تنل حظًّا كافيًا، كما بدا لي، من الجلاء، فحاولت دفعها إلى دائرة الضوء، وإجابة الأسئلة التي قد تثيرها. ووقعت إلى ذلك على بعض

---

(١) جرّبت أن أكافح النص القرآني دون اطلاع على ما كتب فيه، وجعلت من ذلك امتحانًا لقدرتي على استبطانه، فكنت أنتهي إلى بعض النتائج، ثم أنظر ما قيل فيها، فأجدني قد أبليت حسنًا. وغُنم عظيم لمثلي أن أتوصل إلى ما قال به الأستاذ عبد الوهاب النجار [انظر مسألة صلب المسيح في قصة عيسى ﷺ]، بل إلى ما انفرد به أبو مسلم الأصفهانيّ [انظر مثال الطيور في قصة إبراهيم ﷺ].

أفكار وجدَت لديّ ما لا يوافقها، ووفِّقت إلى حجج أغرتني بإثباتها، كما وجدت بين يديّ طائفة من الأفكار التي رأيت أنّها تشاكل ما في الأصل، فأضفتها إليه. وقد تداخلت إضافاتي بالأصل في كثير من المواضع، حتى بات يصعب عليّ، في مراجعاتي الأخيرة للكتاب، أن أحدّد معظمها.

*

ينضوي توجّهي في هذا العمل في منهج صاحب القصص عمومًا، مع اضطراب ميزان الثقل بين نقطة وأخرى أحيانًا، وقد أفرز هذا الاضطراب بعض المناقشات، وأدّى إلى تعدّد زوايا الرؤية في أمور أشرت إليها في مواضعها، وأهمّ النقاط المَعنيّة:

ـ الدين خطاب للعقل أوّلاً[١]، ولا يعني هذا التحكّم العقليّ بالكتاب والسنّة، ولا تقديم العقل على نصوص الشرع[٢]، ذلك أن العقل ما كان يومًا في حقل غير حقلهما، لأنّهما خطاب له، والدين خطاب للشعور ثانيًا، وهي درجة أدنى. فإذا كان التوصّل إلى ما يريده الدين ممكنًا عن طريق العقل، فهو الأَولى.

ـ لا يجوز أن نرفض حكم العقل في تأويل نصّ مّا إذا صدّقت اللغة ذلك الحكم، ولم ينقضه نصّ آخر في الكتاب العزيز، أو في الحديث الصحيح المرفوع الذي لا يناقض العقل وصحيح العلم، بل لا يجوز أن نتجاهله، ونأخذ بغيره ما دمنا قد أُمرنا بالتدبّر.

ـ الاهتداء في التأويل بالحدْس الملهِم، على أن يتّكئ على ثقافة موسوعيّة، ويعتدّ اللغةَ، وفِقهَ النصّ القرآنيّ، وسنّة رسول الله ﷺ. ولا تُغني تلك العُدة عن ذلك الحدْس، ففِراسة المؤمن مصدر من مصادر الحقيقة ينبغي ألاّ نستهين به. ولكنّ على المؤوّل، كما على القاضي، أن يحسن استخدام الحدْس، فلا يمسّ مؤدّاه أُسسَ العقيدة، ولا يناقض المقطوعَ بصحّته من العلم في أيّ مجال من مجالاته، وألاّ يرتّب على حدْسه نتيجة قبل أن يجمع الأدلّة المصدِّقة له، ويستوثق لنتائجه بعرضها على جهة محايدة، لضمان البراءة من خطأ، قد تقود إليه سيطرة فكرة مسبقة.

---

(١) يتّضح هذا من عدد المرّات التي ذكر فيها العقل والعلم واللبّ والنهى والفقه والتفكّر والتبصّر والتذكّر في القرآن العظيم.

(٢) انظر عادل التلّ: فكر جارودي بين الماديّة والإسلام ص١٩.

ـ تخليص القصص القرآنيّ ممّا ألحقه به التلوّث بالإسرائيليّات من النفَس الخرافيّ، ما أعانت في ذلك النصوص القرآنيّة، وصحيح الحديث. والإفادة في هذه العمليّة من تضارب النصوص، وتقاطعاتها فيما بينها في الكتاب المقدّس(١)، ومن التقاطعات فيما بينها وبين نصوص القرآن والحديث. ويُتلمَّس هذا التضارب في الموضوعات المختلَف عليها بين المذاهب، وفي الموضوعات التي لها علاقة مباشرة بما وراء ذلك الكتاب من غايات وأهداف.

ـ عدم إقامة اعتبار للروايات التاريخيّة غير الموثّقة، وللأحاديث التي أُجمع على عدم الاحتجاج بها، ولنصوص التوراة التي بين أيدينا، وللمتداوَل من القِصص، إلاّ في معرض الحاجة إلى معرفة البيئة التي تحتضن الأحداث، أو لمعارضتها بما يُقنع ببطلانها، و تكرار الإشارة إلى كونها محض روايات وأقاويل كلّما سمح السياق بذلك(٢). وتلك خطوات مرحليّة، لا بدّ منها للوصول إلى فهم نقيّ للقَصص القرآنيّ.

ـ تفرض نتائج الدراسات الآثاريّة العلميّة اليوم نفسها بقوّة على البحث التاريخيّ، ولا مناص من الاستهداء بها في تقاطعات هذا البحث والنصوصَ الدينيّة التي هي موضع بحثنا، وإذا لم نقرّ لهذه النتائج بصفة الإلزام تشدّداً في الاحتياط(٣)، فإنّها تكتسب صلاحيّة مشروعة لإلغاء النصّ التوراتيّ عندما ننظر إليها في ضوء عدم مصداقيّة هذا النصّ من جهة، وعدم معارضة النصّ القرآنيّ لمضمونها من جهة أخرى.

---

(١) مجلد يجمع توراة اليهود تحت اسم العهد القديم، وأناجيل النصارى الأربعة، وسفر أعمال الرسل، ورسائل بولس، ورؤيا يوحنّا تحت اسم العهد الجديد.

(٢) وقد سبق أن بينت عدم إيماني بالأخذ بهذا القصص، غير أنني لم أستطع تجاوز ذلك في هذا الكتاب، فلجأت إلى إغنائه بالملاحظات، متجاوزة بذلك قدري وحقّي، طمعًا في سعة صدر صاحبه، وتقبّله ما يقوم البرهان عليه، وإن لم يطابق ما يراه.

(٣) يعتمد الحديث من الدراسات والأبحاث الأركيولوجية على تقنيات وعلوم متطوّرة قللت كثيرًا من فرص الخطأ في البحث، أمّا قراءة النتائج، فقد رأيت أفضلها ما كان على ضوء نصوص القرآن الكريم، لما هزني من مطابقة المقطوع بصحته منها لما جاء فيه. وقد ذكرت عددًا من الشواهد على ذلك في هذا البحث.

ورغم أنّني جرّبت، في المساحة المتاحة لي من هذا العمل، أن أتلقّى النصّ القرآنيّ العظيم من دون وساطة ممّا حفظه لنا التراث، أو وجّهت إليه المكتشفات والعلوم الحديثة، فلم يزل حلماً أن أقدّم قصص القرآن كما جاءت في سياقاتها، ولِما جاءت له، وأن أرسم صور أبطالها من هذين المصدرين دون سواهما. وإن النتيجة التي أرجو تستحقّ ما يتطلّبه هذا العمل من عناء، ذلك أنّها سوف تكون ضربًا على ما فرَضته أقلام كتبة التوراة وتصوّراتهم على الفكر الإسلاميّ، ومصدّقه لقناعتي أن قمّة الإعجاز القرآنيّ أنّه لا يمكن أن يكذّبه مَن تحرّوا رشدًا.

* * *

انتهى العمل بين يديّ إلى مقدّمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة.

أمّا الباب الأوّل فبعنوان: «**مدخل إلى القصص القرآنيّ**»، وقد جَمعت مادّته من مجمل العمل. وهو باب على جانب كبير من الأهميّة لأنّه يهيّئ القارئ لما في الكتاب من الأفكار الخاصّة، والنتائج البديعة، والمعالجة المبتكرة، والقضايا التي ندر أن تُثار في القصص القرآنيّ. وقد عرضت في هذا الباب للموضوعات التي حظيت بأكبر قدر من الخصوصيّة والتميُّز في المعالجة، وجعلت ذلك في فصلين، أوّلهما «في النبوّة والأنبياء» وفيه: النبوّة والرسالة، والإسلام: الرسالة والرسول، والغيب، والوحي، والمعجزة، والصحيفة والكتاب. وثانيهما «في الإسرائيليّات» وفيه: التلوّث بالإسرائيليّات وأبرز أسبابه ومظاهره في الفكر الإسلاميّ.

وأمّا الباب الثاني فبعنوان «**القصّة في القرآن الكريم**»، وتناول طبيعة القَصص القرآنيّ وأبرز أشكاله، وأهدافه، وتوظيفه.

وأمّا الباب الثالث فبعنوان «**أحسن القصص**»، وهو قصص الأنبياء في واحد وعشرين فصلاً. وكان عليّ أن أتقبّل التفاوت الكبير بين عدد صفحات تلك الفصول، نزولاً على حكم المادّة المحدّدة.

وكانت الخاتمة هي الأخرى مستخلَصة من جملة العمل، مبلوِرة للغاية النظريّة والعمليّة منه. وهي تقديم القَصص القرآنيّ بصورة أكثر نقاءً، وأكثر إخلاصًا لأصوله في القرآن العظيم وصحيح الحديث، من خلال طرح علميّ منطقيّ يفعّله في واقعنا المعاش، كجزء من العودة الرشيدة إلى الحقّ الذي تنتظره الإنسانيّة، والذي لن يكون إلاّ من خلال هذا الدين.

❋ ❋ ❋

وقد تشعّبت التقسيمات بين عناوين رئيسيّة، وأخرى فرعيّة، في القِصص الطويلة، كقِصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى، واقتصرت على العنوان الرئيسيّ في القِصص القصيرة، كقصص إسماعيل وإسحاق ويَعقوب، عليهم جميعًا السلام.

وتزاحمت في كثير من الأحيان الفوائد والاستطرادات، ولم يرُق لي أن أنتزعها من مواضعها لأجعلها مَلاحق منفصلة، فحصرتها حيث كانت بعلامة مميّزة. ثم احتجت إلى وسيلة أخرى للتمييز، ذلك أن المحصورات كانت تتقارب أحيانًا، فجعلتها بحرف أسود صغير.

وقد عمدت إلى ضبط ما ألجأت الضرورة إلى ضبطه من الكلمات، إضافة إلى ضبط الشواهد وأسماء الأعلام. واخترت أن تثبت الآيات الكريمة بطريقة القوالب تحرّزًا من الخطأ أو السهو، وذكرت من الآية موضع الشاهد فقط، أمّا النصوص المنقولة من الكتاب المقدّس، فقد أثبتّها بما فيها من أخطاء في التعبير والضبط والترقيم، وعلّقت في الحاشية على ما رأيت أنّه في حاجة إلى إيضاح.

وقلّلت ما أمكن من ذكر عبارتي « ﷺ » و «عليه السلام»، لئلاّ تُربك كثرتها، وكثافتها النصّ، وتشتّت الفكرة. وأغفلت شرح المفردات والتعريف بالأعلام إلاّ ما ألجأت إليه الضرورة، وجعلت معظمه في المتن.

وزوّدت الكتاب إضافة إلى الفهارس الفنيّة المعتادة، بفهرس للمسائل التي تخلّلت نسيج القِصص على صورة معترِضات، لأنّها من التساؤلات التي تُلحّ على عقول

الكثيرين، والتي عُرضت في برنامج «أحسن القَصص» من منطلق علميّ في أسسه، واقعيّ في تطبيقاته، فوسّعت نطاق البحث ورفدته بمادّ ثمينة. والله وليّ التوفيق.

***

اقتحمت هذا العمل ولا عدّة لي إلاّ التفاني في تحرّي الحقّ والإخلاص له، وأكرمني ربّي بأن هيّأ لي، في مراحله الأخيرة، أن أنذره له محرّرًا، فبذلت في تصحيح التجارب والفهرسة، من الجهد والوقت، ما وازى نظيره في المراحل السابقة كلّها، واتّسعت لذلك صدور العاملين في دار النشر، فجزاهم الله به كلّ خير، وله الحمد حتى يرضى، وعسى أن يكون لي، من إخلاصي، وغايتي من هذا العمل، شفيعًا عنده، وعند أهل العلم، لما أخطأت فيه، أو قصّرت عنه قدرتي.

***

كلمة أخيرة أتوجّه بها إلى فضيلة شيخنا الأكرم:

أعتذر إليكم، فقد بدأت الكتابة بلا قيود، فتخلّل كثير ممّا لديّ الأصل الذي وضعتموه، تخلّلاً تعذّرت معه الإشارة إليه كلّه. ولمّا لم تمانعوا في قبول ما عرضت عليكم من نموذج للعمل، قرّرت أن أتابع ما بدأته. ولكنّني اجتهدت في تمييز النقاط التي لم أوفّق إلى مثل وجهة نظركم فيها، والإضافات التي قد تثير الجدل، لأثبت مسؤوليّتي عمّا جئت به.

وإنّي لأحمّل نفسي تبعة كلّ خطأ أو سهو أو تجاوز لا بدّ أن يكون قد وقع[١]، وأرجع بالفضل كلّ الفضل إلى فضيلتكم، فيما ينفع الناس ويمكث في الأرض منه، ذلك أنّها في واقع الأمر بضاعتكم حاولت أن أردّها إليكم، فأبت إلاّ أن تحمل آثار

(١) وهذا على رأس الأسباب التي جعلتني أحيل على بحث «الحق المطلق» في كلّ ما توقّعت أن يثير جدلاً من الأفكار.

صحبة أعوام ثلاثة من العمل الدؤوب المخلص.

وإني لأشكركم جزيل الشكر لمباركتكم العمل، والسماح بنشره، وتلك منّة عليّ من الله أسأله أن يرزقني شكرها، ويد لفضيلتكم أرجو أن أكون أهلاً لها، وأن تقاسموني الثواب يوم تُجزى كلّ نفس بما كسبت. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

فاطمة محمد شنون

حلب في ٢٧/ رمضان/ ١٤٢٨هـ

الموافق لـ ٨/ تشرين الأول/ ٢٠٠٧م